

الخصائص الأسلوبية للقصص القرآني

عقيلة لعشبي*¹

قسم اللغة العربية وآدابها ، جامعة مولود معمري ، تيزي وزو (الجزائر) ،

akila.lachebi@ummtto.dz

الإرسال: 2022/06/08

القبول: 2025/12/25

النشر: 2025/12/26

الملخص:

تعرض هذه الورقة نوعاً من أنواع فنون القول الجميل في القرآن الكريم المتمثل في "الفَصَصِ القرآني"، وأهم خصائصه الأسلوبية ووجوه إعجازه المتمثلة أساساً في حسن انتقاء الألفاظ المناسبة والمتناغمة التي تصيب المعنى بدقة، وبلاغته العالية التي أعجزت العرب عن الإتيان ولو بعبارة واحدة من مثله أو تقليده ولو في فاصلة واحدة وهم أهل الفصاحة والبيان المقتدرين على التصرف في أنواع الكلام كيفما أرادوا، ناهيك عن صدق أحداثه وتأثيره في النفوس وهدايته للقلوب، مع حمل القارئ على التدبر في كلام الله عز وجل، علماً أنّ فنّ القصص لم يعرف عن العرب مثلما عرفت عنهم فنون الأدب الأخرى، لذا فقد تعلّم العرب من القصص القرآني الكثير من الأساليب ناهيك عن الهداية والخشوع وتصديق دعوته صلى الله عليه وسلم، لنخلص أنّ القصص القرآني ضرب من الإعجاز اللغوي في الأسلوب وصدق الأحداث وفنّ جميل من فنون الكلام التي لم يعرفها العرب من قبل.

الكلمات المفتاحية: القصص القرآني؛ الإعجاز اللغوي؛ خصائص الإعجاز اللغوي؛ الترابط والإيجاز؛ التكرار والحوار.

* المؤلف المرسّل.

Quranic stories and their stylistic miracle

Abstract This paper discusses the "Qur'anic stories", its most important stylistic characteristics and aspects of its miraculous nature, represented by the good selection of appropriate and harmonious words that accurately convey the meaning, its high eloquence, not to mention the truthfulness of its events, its impact on souls and its guidance of hearts, while urging the reader to contemplate the words of God Almighty, knowing that the art of stories was not known to the Arabs, so the Arabs learned many styles from the Qur'anic stories, not to mention guidance, humility and belief in the call, so we conclude that the Qur'anic stories are a kind of linguistic miracle in style and truthfulness of events and a beautiful art of speech that the Arabs did not know before.

subject is determined, the problem and the objective, and the results in short.

Key words: Quranic stories; linguistic miracle; characteristics of Quranic stories; coherence; brevity; repetition; dialogue.

1- مقدمة:

ذهب علماء البلاغة في بيان عجز العرب معارضة القرآن الكريم في سبعة وجوه منها: البلاغة والصرف والتحدّي وصدق أخباره المستقبلية وغيرها. ولم يخف على أحد من حذاق اللغة أنّ القرآن الكريم قد اشتمل على فنون القول وأصوله، وقد سلك عدّة مسالك لهداية الناس منها: الحوار والمناظرة، الخطاب المباشر وغير المباشر، السرد القصصي، الترغيب والترهيب وغيرها من فنون الكلام الجميلة الجذّابة ممّا امتنع عنها بلغاء العرب في عصر ذروة البيان والفصاحة في الإتيان ولو بعبارة مثله.

وقد كان السرد القصصي من أحسن الوسائل لتبليغ الرسالة وضرب الحجة للناس ، لذا تكاد السور تخلو منه ، فما المقصود بهذا النوع من الكلام وما خصائصه في القرآن الكريم وما وجه إعجازه ؟

2 - في مفهوم القصص:

لكلمة قصص بفتح الفاء في القرآن الكريم معنيان:

المعنى الأول الشائع هو حكاية الخبر ورواية الحديث ، وقد جاءت الكثير من الآيات على هذا المعنى كقوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ ... ﴾ [يوسف، 3] وكقوله: ﴿ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَمِعْتِ لَنَا قُلْ مَا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [القصص، 25]. والمعنى الثاني المتفق بين العلماء وأهل اللغة هو تتبع أثر الشخص واقتفائه والنظر في أمره ، وقد سميت الأخبار التي وردت في القرآن الكريم بالقصص لأن فيها معنى تتبع الأخبار والأحداث الماضية للشخصيات والأمم ومن ذلك قوله تعالى عن أم موسى: ﴿ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص، 11]، أي قالت: تتبعي أثره وراقبيه من بعيد ، وكذلك قوله تعالى عن موسى وفتاه: ﴿ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ [الكهف، 64]، أي لما تذكر فتى موسى فقدان الحوت طلب العودة إلى الصخرة فعادا معا يسيران على آثار أقدامهما ويقصان آثار سيرهما.

يقول أبو الحسن أحمد بن فارس 395هـ: "القاف والصاد أصل صحيح يدل على تتبع الشيء ، من ذلك قولهم: اِفْتَصَصْتُ الأثر إذا تَبَعْتُهُ"¹.

والقصص مصدر الفعل قَصَّ ، وهو على قياس مَدَّ مَدَدَ وَشَطَّ شَطَطَ ، ويقال أيضا قَصَّ قَصًّا ، وقد استعمل القرآن الكريم الفعل قَصَّ والمصدر قَصًّا بفك الإدغام أي قَصَصَ قَصَصًا في الكثير من المواضع مثلما فك إدغام الكثير من الأفعال والمصادر نحو: مَدَّ مَدَدًا وَشَطَّ شَطَطًا ، ويدل فك الإدغام في (قصص) على معنيين هما:

__ كثرة تتبع الأحداث والأخبار بغاية الدقة.

__ كثرة الأخبار المحكية خبرا بعد خبر لا خبرا واحدا².

وهذان المعنيان ينطبقان تماما على كل ما ورد في القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى:

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحِيلَ

عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَنْزَعُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿[الأعراف، 176].

أما القِصص بكسر الفاء فهو جمع قِصَّة كجمع قطعة على قطع، مفردة قصة، ولا تحمل كلمة قِصَص بكسر الفاء المعنى الذي تحمله القِصص بفتح الفاء من تتبع أثر الشخص أو الشيء واقتفاء آثاره واستقصائه بدقة تامة مع كثرة الأخبار التي ترويه، وإنَّما تعني كلمة قِصص بالكسر جمع كلمة قِصَّة فحسب.

وبتعبير آخر تعني كلمة قِصَص بالكسر جمع قِصَّة، أما القِصَص بالفتح فهو لفظ اختص به القرآن الكريم في رواية الخبر اليقين بدقة وتتبعه.

والقِصَّة كلمة مشتقة من (القِصَص)، ترمي هي الأخرى في الأدب إلى حكاية الخبر، وقد اختص القرآن الكريم في رواية الخبر استعمال كلمة القِصَص ولم يستعمل كلمة قِصَّة لأمرين أولهما لأنَّه معجزٌ في لفظه ومعانيه لذا أثر استعمال ما هو معجزٌ ودقيق المعنى، وثانيهما لما لهما من تفاوت في المعاني التي تدلَّان عليها.

أما الأدباء والمفسرون وغيرهم من العلماء وعامة الناس فيؤثرون استعمال كلمة (قِصَّة)، كما يطلقون على القِصَص القرآني أيضا كلمة قِصَّة كقولهم: قِصَّة سيدنا موسى وقِصَّة سيدنا إبراهيم...

وتجدر الإشارة إلى أنَّ القرآن الكريم قد استعمل أحيانا كلمة (خبر) وأحيانا أخرى كلمة (نبا) في حكاية قصص الأنبياء والأمم والصالحين وغيرهم، ومن دقة ألفاظه أنَّه ميَّز بينهما في الاستعمال أيضا، إذ استعمل كلمة (النبا) للحديث عن الأحداث البعيدة زمانا ومكانا ممَّا قد يكون اندثر، في حين استعمل كلمة (الخبر) في الكشف عن الوقائع القريبة العهد والوقوع والتي لا تزال مشاهدتها قائمة للعيان، ومن أمثلة ذلك أنَّه استعمل (نبا) في قصة فتية الكهف في قوله تعالى: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴾ [الكهف، 13]، فلما كانت حيشيات وملابسات قصة فتية الكهف من الأخبار التي بُعد بها الزمان واندثرت أو كادت تندثر ولا يعلمها إلا الله سهاها الله بـ "أنباء الغيب"³.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثمودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ... ﴾ [إبراهيم، 9].

والهدف من سرد أخبار السابقين في القرآن تثبيت فؤاد رسول الله في المقام الأول مصداقا لقوله: ﴿وَكَلَّا نَقْصُ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود، 120]، وليخبره عز وجل أن أمثاله من المرسلين كثيرون فلا يضيق صدره بما يقول الكفار مصداقا لقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ...﴾ [غافر، 78].

كما أن الهدف منها ليس التسلية أو الاستمتاع بل الاعتبار لما جرى للسابقين والاعتاظ منها وقد صرح الله بذلك في الكثير من الآيات كقوله تعالى: ﴿... فَأَقْصُصْ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف، 176]، وقوله: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدَثًا يَفْتَرِي وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف، 111].

ولذلك لا تخلو سورة من سور القرآن من القصص، وقد جاءت بعضها قصصا كسورة القصص وسورة يوسف، وتتفاوت قصص الأنبياء في القرآن فبعضها مطولة كقصة إبراهيم وموسى ويوسف، وبعضها متوسطة الطول كقصة يونس وسليمان ولوط، وبعضها قصيرة كقصة إسماعيل وإسحاق، كما أن بعض الأنبياء لا نعرف عنهم إلا أسماءهم كإلياس واليسع وذي الكفل⁴.

3 - في مفهوم القصة:

تعني القصة حادثة أو مجموعة من الأحداث المرتبطة بظروف الناس وأحوال حياتهم ومعيشتهم، يقوم صاحبها بسرد الحوادث وروايتها بأسلوب جميل مؤثر، يربط بين أحداثها ترابط سردي محكم، تبدأ ببداية ثم حبكة لأحداثها ثم نهاية لها في الأخير. ويختلف الأدباء في طرائق عرضهم للأحداث من حيث اختيار الألفاظ والتراكيب المناسبة التي تبرز المضمون والهدف منها، ويتفاوتون فيها تبعا لمراتبهم ومقوماتهم الأدبية من حيث الدقة في الأسلوب والإجادة في العرض وحسن انتقاء الألفاظ اللغوية الخادمة للمعنى والغرض.

ويضم الفن القصصي القصة والأقصوصة والرواية والحكاية، تكون الأقصوصة صورة مصغرة عن القصة حيث تعالج جانبا واحدا من الحياة في حادثة واحدة أو عدة أحداث مختصرة وتدور في حيز ضيق ومحدود.

أما الرواية فهي أوسع من القصة لأنّ فيها مواضيع كثيرة وأحداثا متعاقبة وأبطالا وشخصيات كثيرة وجوانب كثيرة من الحياة.

أما الحكاية فهي سرد لأحداث قد تكون واقعية أو خيالية لا يلتزم فيها صاحبها بقواعد الفن القصصي بل يسرد كلامه كيفما يشاء.

فالقصة سرد وتسلسل للأحداث وتطوّرها عبر الزمان ، لا هي قصيرة كالأقصوصة ولا طويلة كالرواية يراد منها تمثيل حياة الناس في أخلاقهم وآدابهم وعاداتهم وتحمل للقارئ دروسا في النصح والإرشاد والوعظ.

ولم يحظ الفن القصصي عند العرب القدامى بعناية منذ القرون الأولى للهجرة ، لذا تعدّ الرواية عندهم من أضعف فنون الأدب ، أمّا عند الإفرنج فقد حظيت بمكانة مرموقة ، وقد تكون في شكل تمثيلي يشاهده الناس في المسارح يطلق عليها "الدراما".

ولعلّ السبب في تقاعس العرب القدامى عن التأليف في الفن القصصي راجع إلى الحروب والصراعات التي كانوا يعيشونها ، فلم يعرفوا في العموم الاستقرار النفسي والمكاني ، لذا جاءت أشعارهم في أغلبها وصفا لما يختلج في صدورهم من ظروف نفسية أو اجتماعية أو ما يعيشونه من أحداث تاريخية وسياسية.

وعلى الرغم من أنّ الفن القصصي لم يقطع أشواطا كبيرة عند العرب إلا أنّه سرعان ما بدأ يظهر إثر احتكاك العرب بالفرس والسرّيان والهنود بحكم الاتصال والجوار لذا ترجموا عنهم الكثير من الروايات ، ويعدّ عبد الله بن المقفع ت142هـ رائدا في هذا المجال حيث نقل وترجم من الفارسية والهندية إلى العربية ، ويعدّ كتاب (كليلة ودمنة) من أشهر ما نقل من الفارسية إلى العربية ، ومن أشهر ما نُقل من الهندية إلى العربية كتاب (سندباد الكبير) ، وترجم العرب كتاب (ألف ليلة وليلة) من الفارسية إلى العربية وقد أضافوا إليه قصصا كثيرة من تأليفهم⁵.

ولم يعرف في الأدب العربي شيء من ملاحم وقصص اليونانيين ، ولعلّ السبب في ذلك إصراف الأدب اليوناني القديم في الخيال والخلط بين الآدميين والآلهة في مشاهد تجمع الغرائب والعجائب وفي اصطناعهم آلهة لكل شأن من شؤون حياتهم تنسب إليها الخوارق ، يصعب للعقل العربي المسلم تقبّلها مثلما هو الحال في الإلياذة لهوميروس.

4 - القصة في القرآن الكريم:

أما القصة في القرآن الكريم فهي ضرب من الإعجاز في رونق أسلوبها وصدق أحداثها ، فهي واقع لا خيال ، جد لا هزل ، تقصّ أخبار الأمم الغابرة والنبوات السابقة والحوادث الواقعة وتاريخ الأمم وذكر البلاد والديار ممّن عاش في القرون الغابرة ليطمئن قلب النبي صلى الله عليه وسلّم ويتعلّم منها القارئ ، بلغة فصيحة في أعلى مراتب البلاغة ، وهي من أعظم المصادر وأوثقها في أيدي العرب في الفن القصصي باللغة العربيّة.

يقول الله عزّ وجلّ في سورة يوسف عليه السلام: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقُصَصِ ... ﴾ [يوسف ، 3] ، ثم يقصّ الله تعالى قصة يوسف وإخوته وقصته مع امرأة العزيز ، فالقصص الحسن المقصود هنا في الآية ليست المتعة والتشويق بل الخبر وحقيقة ما كان في التاريخ الماضي ، وأنّ الشخصية التي تدور حولها الأحداث ليست البطل الحقيقي في القصص القرآني بل البطل الحقيقي فيها هو العبرة والدرس المستخلص منها في الإيمان أو الكفر ، في الصدق أو الكذب ، في الهداية أو الضلالة ، فالبطل في سورة يوسف عليه السلام ليس بيوسف ولا يعقوب عليه السلام وأولاده ولا امرأة العزيز ، بل "الطهارة والأمانة" في يوسف و"الهداية" في يعقوب و"الحسد" في أولاده و"المكر" بأخيهم و"الشهوة" في امرأة العزيز⁶.

والقصة في القرآن الكريم على ثلاثة أضرب هي:

__ قصص الأنبياء ومعجزاتهم وقصص الصالحين...

__ قصص الأشخاص والأحداث كقصة أهل الكهف وطالوت وجالوت وقارون وأصحاب

السبت...

__ قصص زمن النبوة كغزوة بدر وأحد وحنين وتبوك...

وغالبا ما تبدأ القصة في القرآن بالتنويه بمطلب أو وعود أو الإنذار بخطر وغيرها ممّا يسمّى بعقدة القصة ، ثم تتراكم الأحداث والمصائب فتزداد القصة حبكا تزيد القارئ شوقا وانتباها لها وتلهفا للحلّ فينتبه فيها إلى آخر كلمة فيها ، ثمّ الحلّ الذي ينتهي بانتصار الحقّ ، ومن أمثلة ذلك مطلع قصة سيدنا يوسف عليه السلام التي تعرض رؤيا يوسف المبشرة ووعد الله على لسان أبيه يعقوب بمستقبل زاهر ونعم من الله ، ثم تتأزم القصة بتتابع المشكلات والمصائب على البطل (يوسف) من حقد ، ومحاولة قتل ، ووحشة ، وإغواء وسجن ، حتى يفرج عليه الله الكرب وينتصر الحقّ ويتحقق وعد الله فيه بفرحة أبيه وتوليّه بعد ذلك وزارة مصر.

وَيَصْرَحُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ الكثير من الأنبياء لم تذكر قصصهم ﴿... مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ...﴾ [غافر ، 78] ، كما أَنَّ الأنبياء المذكورة قصصهم لم تذكر كلَّ مشاهد حياتهم بالتفصيل ، وإنَّما ذكرت منها المشاهد واللقطات التي تحقق العبرة والموعظة ، وحتى تلك المشاهد الأساسية من قصصهم لم يستعرضها استعراضا شاملا دقيقا بل جاءت في بضعة أسطر رغم أنَّها حافلة بالأحداث والوقائع المتسلسلة ، وقد سكت الله عنها عن قصد ، لذا فإنَّ فيها الكثير من الإيهام المقصود لأسماء بعض الأشخاص والأماكن وتفاصيل بعض الخفايا والمسائل ، وهذه الأشياء المقصودة تسمى "مبهمات القرآن" وتتعلق بأسماء الأشخاص أو البلدان أو تحديد الزمان والمكان ، ووجب علينا أن نبقيها على إبهامها ، ونتوقف عند ما عرضه الله منها ، ولا نحاول تبين أو تحديد هذه المبهمات من مصادر غير يقينية كالأساطير والإسرائيليات⁷.

5- من الخصائص اللغوية لأسلوب القصة القرآنية:

لا يخفى على أحد روعة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم ، فهو ينفرد بأسلوب معجز في بيانه وألفاظه اللغوية وأساليبه الأدبية وصيغه التعبيرية تعطي لقصصه روعة وجمالا ووقعا في النفس علاوة على الهداية.

وقد أعجز أسلوبه ونظمه العرب قاطبة على الإتيان بمثله ولو في عبارة وقد صرفهم عن ذلك جميعا ، يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي: "وهذا الأسلوب فإنَّما هو مادة الإعجاز العربي في كلام العرب كله ، ليس من ذلك شيء إلا وهو معجز ، وهو الذي قطع العرب دون المعارضة ، واعتقلهم عن الكلام فيه وضربهم بالحجة من أنفسهم وتركهم على ذلك يتلكأون"⁸.

ولم يستطع أحد من أدباء العرب وشعرائهم وهم أهل الفصاحة والبلاغة مجاراته أو تقليده ولو في عبارة واحدة ، وقد نقل التاريخ محاولات كثيرة لمن حاول تقليده ومحاكاة نمطه غير أنَّها لم تكن إلا مضحكة دلت على غباء أصحابها وجهلهم في تقليد أسلوبه ومحاكاة فواصله ونظمه.

وقد مثَّل القرآن الكريم للعلماء العرب الصورة الحقيقية للكمال اللغوي ، واشتمل على كلَّ علوم اللغة العربية فأبهر العلماء وخاطب أهل العربية كلَّهم على اختلاف مذاهبهم وتخصصاتهم ، فمنه يستمدَّ النحوي قواعد نحوه ، والفقيه أحكام فقهه ، والمفسر أسباب النزول...

وتعتبر القصة في القرآن الكريم ضرباً من الإعجاز من حيث الأساليب في الإفصاح عن الأحداث ببيان ساهر رائع ، وحسن اختيار ألفاظ مخصوصة تنقل القارئ إلى مواقع الأحداث الماضية فيحسّ أنّه منغمس في بيئة الأحداث وملابساتها وكأنّه تنقله إلى عالم الأحداث الفعلي فيتعايش معها ويكوّن في ذهنه ونظره أبعادها ، ويخاطب أسلوبها العقل فينفذ إلى أعماق الجوانب الإنسانية ليستخلص منها عبراً ، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [يوسف ، 111].

ولم يتباه الله عزّ وجلّ بأسلوبه ولغته ، ولم يرد إظهار نفسه على أنّه معجز في لغته العرب البلاء ، فهو لم يرد من الإعجاز اللغوي أن يكون محور اهتمام الناس ومشغلتهم فيلهيهم عن الدين والعبادة.

1 - الإعجاز في لفظ القصص القرآني:

يعلل أبو سليمان إبراهيم الخطابي 388هـ سبب عجز البشر في الإتيان بمثل نظم القرآن الكريم في أمور منها أنّ علمهم لا يحيط بجميع أسماء اللغة العربية وبألفاظها ، لأنّ هناك ألفاظاً ظروف المعاني وأخرى حوامل لها ، ولا تدرك أفهامهم جميع معاني الأشياء المحمولة على تلك الألفاظ ، ولا تستطيع معرفتهم استيفاء جميع وجوه النظم التي بها يكون اتئلاف الألفاظ وارتباطها ببعضها ببعض فيستطيعوا اختيار الأفضل عن الأحسن⁹.

لذا ينفرد القرآن الكريم بألفاظ في غاية الشرف والفضيلة فلا أصحّ ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا نظم أحسن في التأليف وأشدّ في التلاؤم والتشاكل من نظمه ، أمّا المعاني التي تحملها ألفاظه فهي المقدّمة في أبوابها ، والجمع بين هذه الصفات الثلاث هو ما أهله أن يكون معجزاً لأنّه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن تأليف متضمناً أصحّ المعاني من توحيد له وتنزيه له في صفاته ، ودعاء إلى طاعته ، وبيان منهج عبادته من تحليل وتحريم ، ووعظ وتقويم وإرشاد إلى محاسن الأخلاق وزجر عن مساوئها ، قاصاً أخبار القرون الغابرة ، ومنبئاً عن حوادث الزمن المستقبل بحجة وبرهان ، كلّ هذه الأمور موضوعة بأليق الألفاظ لا يرى العقل أحسن منها.

ويرى الخطابي أنّ عمود البلاغة أن تضع كل نوع من الألفاظ موضعه الأخص الأشكل به ، وأنّ هناك ألفاظاً متقاربة في المعنى يحسب الناس أنّها متساوية في إفصاح المعنى المراد منها كالعلم والمعرفة ، والبخل والشحّ ، ونحو: جلس وقعد ونعم وبلى ، فكّل لفظة من تلك

لها خاصية تميّز بها عن صاحبته في بعض معانيها وإن تشتركان كثيرا ، وهذا ممّا يميّز به لفظ القصص القرآني حيث يتحرى الدقة التامة في انتقاء اللفظ لإصابة المعنى. من أمثلة ذلك قوله تعالى على لسان فرعون: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي نَارَ هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطْلُعَ إِلَى إِلَهِي مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ [القصص ، 38].

عبر القرآن بلفظة (الطين) ولم يقل (الآجر) لسببين حيث لا تصلح الآجر لهذا المدّي في صوت أوقد ، ثم كلمة (الطين) ترمي إلى تحقير شأن فرعون وتسفيه رأيه ووصف ضلّالته ، وعبر بالإيقاد على الطين تهكّما عليه لاستحالة البناء على الطين وعدم القدرة على ذلك¹⁰.

يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في كلمة (الآجر) في هذا الموضوع: ليس فيها من خفة التركيب إلا الهمة وسائرهما نافر متقلقل لا يصلح مع هذا المدّي في صوت ولا تركيب على قاعدة نظم القرآن ، ثم أخرج معناها بالطف عبارة وأرقّها وأعديها ، وساقها في بيان مكشوف وذلك في قوله: ﴿ فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ ﴾ فانظر هل تجد في سرّ الفصاحة وفي روعة الإعجاز أبرع وأبدع من هذا ؟ وأي عربي فصيح يسمع مثل هذا النظم وهذا التركيب ولا يملكه حسّه ولا يسوغه حقيقة نفسه ولا يجذبه جنونا¹¹.

2 - الإعجاز في لغة القصص القرآني:

من مظاهر إعجاز لغة القصص القرآني أمور كثيرة جمعت أعلى مراتب البلاغة من تكرار وإيجاز وربط أذهلت العرب قاطبة نذكر منها:

1 _ الترابط: من إعجاز القرآن في نظمه ترابط حروفه وتناسقها داخل كلماته ، وتناسق كلماته في جملة ، ثم تناسق جملة في تراكيبه تناسقا فنيا فريدا في نسيج صوتي ورنين موسيقي عذب أذهل العرب والعلماء ، يقول الأستاذ مصطفى صادق الرافعي: "وصور لهم العجز وتبين من طرق نظمه ، ووجوه تركيبه ، ونسق حروفه في كلماتها ، وكلماته في جملة ، ونسق هذه الجملة في جملة ما أذهل العرب عن أنفسهم ، من هيئة رائعة وروعة مخوفة ، وخوف تقشعر منه الجلود حتى أحسوا بضعف الفطرة وتخلف الملكة ورأى بلغاؤهم أنّ هذا التركيب جنس من الكلام غير ما هم فيه"¹².

وقد كرّس الكثير من المفسّرين من جهودهم في تبيان وجوه إعجاز القرآن وبيّنوا الترابط والتماسك بين الآيات في السور في وحدة عضوية متينة يطلق عليها في الدراسات النصية الحديثة بمبدأ "السبك cohesion" ، ثم بيّنوا طريقته في ربط الأفكار مع السياق أو

المقام وأسباب النزول فيما يسمى بالحبك coherence ككتاب (البرهان في علوم القرآن) لأبي عبد الله بدر الدين الزركشي 794هـ، وكتابي (الإتقان في علوم القرآن) و(أسرار ترتيب القرآن) لجلال الدين السيوطي 911هـ.

ويكمن التناسق الفني أو السبك في القرآن وعرض قصصه في الإيقاع الموسيقي العذب المتعدد الألوان، وهو وليد انسجام الحروف بعضها البعض وتآلفها في اللفظة المفردة ثم انسجام الألفاظ في الفاصلة الواحدة، ويحسن به المرء في السور القصيرة والفواصل السريعة المتساوية في الوزن.

ومن أمثلة التآلف الصوتي في قصص القرآن قوله تعالى على لسان زكريا عليه السلام:

﴿... ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ يَدَّاءَ حَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم، 2، 3، 4] حيث يلاحظ اتزان هذه الآيات في حرف القافية والنسق والجرس الموسيقي.

ومن مظاهر الحبك المتين في القصة القرآنية "حسن الابتداء والتخلص والانتهاء"، وهي أجزاء تنتظم وتتصل فيما بينها بما يناسب من الألفاظ الموحية والمصورة، ولا تقطع كقطع القصيدة العربية، وقد برع القرآن الكريم في سرد قصصه في حسن اختيار اللفظ للمعنى المراد في ابتداء القصة فيعرف منه المقصود من الكلام، ثم حسن التخلص في انتقال محكم إلى الموضوع بصلة وثيقة المعاني غير منقطعة عن البداية ثم الانتهاء إلى الخاتمة، وكأن هذه الأجزاء الثلاثة من القصة خلق متكامل، وذلك كله في أسلوب موجز مركز وواضح.

والجمع بين هذه العناصر الثلاثة من حسن الابتداء وبراعة الاستهلال وحسن التخلص والانتهاء والإيجاز أمر لم يعرف في كلام عربي قط غير القرآن الكريم المعجز، فمن بديع التخلص قوله تعالى في سورة النمل على لسان الهدهد مخاطبا سليمان عليه السلام: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل، 23، 24]، يقص الهدهد لسليمان ما رآه من ملكة سبأ وقومها الذين كانوا يسجدون للشمس، ثم فجأة يغير مجرى كلامه وينتقل إلى هؤلاء المشركين بأن يكفوا عن الشرك ويخلصوا في عبادته فخرج إلى قوله في الآية الموالية مباشرة: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خُزِّجَ الْحَبَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [النمل، 25، 26]¹³.

2 - الحوار: جاءت الكثير من القصص القرآنية محاورات فكرية منطقية بين الأنبياء والصالحين مع الله تعالى ، ينتصر فيها الحق في الأخير والمتمثل في القدرة الإلهية ، وذلك في أسلوب مشوق تدعمه البراهين والحجج كقصة نوح وإبراهيم وشعيب وصالح ، وقد جاءت سورة نوح كلها حواراً شيقاً بين نوح وبين الله تعالى .

من أمثلة الحوار المعجز قوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة ، 260] فهذا الأسلوب المدعم بالبراهين يثير الدهشة والخوف من الله تعالى ، ويثير عاطفة الإنسان ويربيها على الخشوع والانصياع .

3 - التكرار: للتكرار في القرآن الكريم ضربان: ضرب تتكرر فيه الكلمات أو الجمل من غير تبديل فيها أو تحويل كتكرار قوله تعالى في سورة الرحمان ﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ وكقوله تعالى: ﴿ ...كَلَّا سَوْفَ نَعْلَمُونَ ﴾ [التكاثر ، 4] ، ويأتي هذا النوع من التكرار في القرآن للإنذار والردع .

أما الضرب الثاني من التكرار فقد يأتي بتبديل الكلمات والتراكيب والمعاني ويسلك الإيجاز أو الإطناب ، ومن أمثلة ذلك قصة سيدنا نوح في سورة هود التي سلكت سبيل الإطناب في أربعين سطراً من سطور المصحف الشريف ، والتي تكررت في سورة القمر وقد أوجزت الأربعين سطراً في خمسة أسطر متوافقة الرؤوس والإيقاع الموسيقي .

وتعتبر قصة موسى عليه السلام القصة الأكثر تكراراً في القرآن الكريم وذلك لأنها تمثل الصراع الحقيقي بين الحق والباطل الظاهر للمرء وتختلف في صور تعبيرها من موضع إلى آخر ، أما قصص يوسف عليه السلام ولقمان الحكيم وأصحاب الكهف لم تتكرر قط .

ويتصرف القرآن في وجوه سرد القصة على ضروب مختلفة والغرض من ذلك أن يعلم العرب عجزهم عن تلك الطرائق ، فهي تحاكي بتعابير شتى وفي مواضع متنوعة تسرد أمراً جديداً في كل تكرار ، ورغم تكرارها فهي لا يطالها الضعف أو الخلل في نظمها أو الضعف في جودتها ، وروح التركيب بينها وبين باقي الآيات منفرد تتعلق بعضها ببعض في ترتيب محكم .

وتكرار القصة الواحدة بأساليب مختلفة من صور الإعجاز وقوته لأنها ترد في أكثر من موضع وبأسلوب مختلف لا يمل القارئ من تكرارها بل يكتشف في كل مرة معاني جديدة لم يحصل عليها في غيرها من المواضع .

والتكرار في القرآن الكريم لحكمة بليغة منزلة من حكيم عليم ، فما من حرف أو كلمة أو جملة مكررة إلا ولها حكمة عظيمة .

وعن أنواع التراكيب في القصص القرآني فقد كثرت "الجملة الخبرية" وذلك في الكثير من القصص كقصة نوح وإبراهيم وهود ولوط وشعيب .

وكثرت "الجملة الطلبية" الواردة بعدة صيغ وأساليب منها ما هو وارد على صورة الأمر كالواردة على لسان الله عز وجل ... ، ومنها ما هو على صورة الدعاء كالواردة على السنة الأنبياء والصالحين والمؤمنين وما هو على أسلوب النداء الذي يليه الأمر ، ووقوع أن التفسيرية في صدر الأمر ، وما هو وارد على أسلوب الاستفهام والنهي التي تدخل في معنى الجملة الطلبية وهي كثيرة في القرآن الكريم ، وكثيرا ما يتبع هذا النوع من الأسلوب الجملة الخبرية المؤكدة أو غير المؤكدة والتي تقوم على تعليل الطلب وإيضاحه .

4 - الإيجاز: إنَّ من إعجاز القرآن "الإيجاز المفيد" فيما أورده من قصص الرسل والأنبياء وأخبار الأمم والحضارات ، وقد اصطفى الله عز وجل من القصص والأحداث التاريخية والأيام الغابرة الكثيرة أنفع القصص لتوجيه الناس إلى الطريق الصحيح والهداية في أسلوب موجز واقعي ونظيف من كل كلمة مذمومة ليعلم القارئ الرقة والأدب في الحوار والكلام علاوة على العبرة والاتعاظ .

وقد وظف الله عز وجل من القصص قدرا معقولا موجزا منها لهداية الناس وكأنها دروس وعظ ، ولذلك فهي لم تكن اللغة الوحيدة في خطابه .

وتمتاز معظم القصص القرآنية بالتركيز والإشارة الخاطفة في بضعة أسطر أحيانا ، وعلى الرغم من ذلك فهي واضحة الفكرة والعبرة المستخلصة منها ، وألفاظها فصيحة وموحية ومؤثرة ليس فيها من الرذيل والحوشي كما أنَّ عباراتها متسلسلة تسلسلا تاما داخل إطار القصة وخارجها حيث تتناسق تراكيبها مع باقي الآيات تناسقا فريدا من غير إخلال بهيكل السورة القرآنية .

من أمثلة الإيجاز في القصة القرآنية قوله تعالى في نهاية قصة نوح في سورة هود: ﴿ قَالُوا يَا أَيُّهَا الضُّالُّونَ إِنَّا نَرَاكُمْ فِي شَكٍّ مِّنْهُمَا أَفَلَعِيَ وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴾ [هود ، 44] .

ففي هذه القصة العظيمة جمل قصيرة تتسم بالإيجاز الشديد وتصف عودة الأمور إلى مجراها الطبيعي بعد طوفان عظيم في سرعة باهرة وكأنَّ الأمر قد تمَّ في لمحة عين .

6- خاتمة:

ضرب الله عز وجل للعرب المثل الأعلى في بلاغة أسلوب القصص القرآني من حيث صدق الوقائع والأحداث ودقة الأسلوب وجودة السبك في وحدة فنية محكمة ومراعيها فيها جوانب كثيرة من عناصر التشويق في اللفظ والمعنى والسبك، وبعيدا كل البعد عن المغالاة في التعبيرات البلاغية والخيالية، من غير أن يتصف أسلوب القصص القرآني بالإسهاب في العرض والتفصيل المخلّ بالتعابير، بل يتصف بالتركيز والإيجاز والإشارة الخاطفة المهمة التي تؤثر على النفس، وكل ذلك من أجل تحقيق أغراض سامية تدعو كلها إلى إثبات وحدانية الله عز وجل وعظمته.

7- مصادر البحث ومراجعته:

- إبراهيم أبو سليمان الخطابي، بيان إعجاز القرآن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تح: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، ط3، مصر، 1976.
- أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، دط، دب، 1979، ج5.
- أحمد الجوهري عبد الجواد، القصة في القرآن الكريم، قسم أصول الدين، الجامعة الأمريكية المفتوحة، دب، دت.
- صلاح الخالدي، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث، دار القلم، ط1، دمشق، 1998، ج1.
- علي الطاهر عبد السلام، القصص القرآني دراسة لأسلوب القصص القرآني قصة يوسف عليه السلام نموذجاً، الموقع: <http://www.noor.book.com.html>، تاريخ الاطلاع: مارس 2022.
- علي هاني يوسف، تحقيق الفرق بين القصص والقصص، الموقع: <http://www.vb.tafsir.net.html>، تاريخ الاطلاع: مارس 2022.
- محمود السيد حسن مصطفى، الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، مؤسسة شباب الجامعة، ط1، مصر، 1981.
- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، ط9، بيروت، 1973.

8- الهوامش والإحالات:

¹ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، دط، دب، 1979، ج5، ص11.

² علي هاني يوسف، تحقيق الفرق بين القصص والقصص، الموقع: <http://www.vb.tafsir.net.html>

³ علي الطاهر عبد السلام ، القصص القرآني دراسة لأسلوب القصص القرآني قصة يوسف عليه السلام نموذجاً ، الموقع:

<http://www.noor.book.com.html>

⁴ صلاح الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، دار القلم ، ط1 ، دمشق ، 1998 ، ج1 ، ص 28

⁵ محمود السيد حسن مصطفى ، الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ط1 ، مصر ، 1981 ، ص 13 - 14.

⁶ أحمد الجوهري عبد الجواد ، القصة في القرآن الكريم ، قسم أصول الدين ، الجامعة الأمريكية المفتوحة ، دب ، دت ، ص 7.

⁷ صلاح الخالدي ، القصص القرآني عرض وقائع وتحليل أحداث ، دار القلم ، ط1 ، دمشق ، 1998 ، ج1 ، ص 41.

⁸ مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، دار الكتاب العربي ، ط9 ، بيروت ، 1973 ، ص 188.

⁹ الخطابي ، بيان إعجاز القرآن (ثلاث رسائل في إعجاز القرآن)، تح: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، دار المعارف ، ط3 ، مصر ، 1976 ، ص 27.

¹⁰ محمود السيد حسن مصطفى ، الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية ، مؤسسة شباب الجامعة ، ط1 ، مصر ، 1981 ، ص 81.

¹¹ مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، دار الكتاب العربي ، ط9 ، بيروت ، 1973 ، ص 233.

¹² إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ، ص 214.

¹³ الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية ، ص 86.